الابن والام

بقلم الكاتب الكوبي : رينالدو ارينـاس

ترجمها عن الاسبانية : ماهر البطوطي

« ولد رينالدو ارينـاس في مقاطعة الشرق بكوبا في عام ١٩٤٣ ،وتلقى دراسته في مدرسة التخطيط ثم في كلية الاداب بجامعة هافانا . وعمل بعـد ذلك عدة سنوات في معهـد الاصلاح الزراعي وفـي المكتبـة المتنقلة . وقد نشر معظم قصصه القصيره في مجلتي « الاتحاد » و « بيـت الامريكتين » . وقـد نالت رواياته وقصصه شهرة واسعـة في بلاده ،واهم رواياته بعنوان « عالم الهذيان » . وتمتاز هذه القصص بغلبة الرمز فيهـا، الى جانب الحس الاخلاقي الفياض والتعمق في نفوس الشخصيات .

وتعتبر هذه القصة نموذجا جيدا للقصة القصيرة الفنية ، التي يغلب عليهـا البناء المحكم والاستخدام البارع للرموز ، وتتضافر كل اجزائها في الوصول الى اثر عام ينقل الاحساس الذي يرغب الكاتب في ايصالـه الى القـارىء » .

* * *

كانت الام تنتقل بين غرفة الطعام والمطبخ .

كانت الام تمشي وهي تقفز قفزات صغيرة كما يفعل الفأر وقد بللـه الماء .

كانت الام جالسـة في الردهة وهي تتمايـل في مقعدهـا جيئـة وذهابـا .

كانت الام تنظر عبر النافذة .

كانت يدا الام مليئتين ببقع صغيرة من النمش ، مع انها لم تكـن عجوزا .

وتاوهت الام .

واختفت الام في المطبخ حيث اخذت تحادث نفسها .

وقفت الام على قدميها ومشت الى المطبخ .

كانت الام قـد ماتت .

* * *

هبط الابن من الغرفة (الغرفة الوحيدة التي كـان يشتمل عليها الطابق الاعلى ، وكانت تشبه قفص طيور ضخمـا) وهو يحمل كتابا في يده . وجلس . ولكنه لـم يشرع في القراءة .

وقالت الام وقد حضرت من المطبخ : « سيكون الطعام جاهزا حالا ».

وفتـح الابن الكتاب .

كانت الردهة واسعة ، وعبر ستائر النافذة المعدنية التي احتلت الجزء الاعلى كله من الحائط ، تسرب الهواء الذي كاد يكون رياحا ، وكان يهز الزجاج هزا ويدفع احيانا جانبي النافذة .

قالت الام وهي تغلق النافذة : « عليك ان تقلل من القراءة . او لا تقرأ على الاطلاق . ان هذا يؤذيك . »

وحمل الابن الكتاب الى الرف الذي لا يحوي سوى بعض المجلات، ورمـاه فوقهـا .

وكانت الام في هذه اللحظة تنتقل بيـن غرفة الطعام والمطبخ ، دون ان تتوقف في مكان معين .

وكان يراها تدخل وتخرج ، بطريقة تبعث على الدوار . تدخل ، وتخرج .... حتى بلغت السرعـة حدا ان تخيل انهـا ثابتة امام عينيه.

وعند ذلك توجه الابن الى المقعد الذي يواجه المقعد الاول بجانب النافذة، وجلس . ربمـا تكـون الساعـة قد بلغت الخامسة ، ويجوز ان تكـون قد تعدت ذلك . ربمـا السادسة او السادسة الا خمس دقائق . وهذا يعني ان الزائر سيصل خلال خمس دقائق . وهو لم يذكـر بعد شيئا من ذلك الامر الى الام . وهـو على وشك الحضور في هذه اللحظة.

واقترب من عرائش الستائر العاليـة وشاهد ضوء الشمس يتراوح على اوراق شجرة اللوز التي عرتهـا العاصفـة من اوراقها . كان الموضوع يتلخص في انه ينتظـر صديقا . هـو ، الذي لـم ينتظـر احدا ابدا، لعـدم وجود المكـان .

ـ كيف يمـكن الا يكون لديك مكان ؟

ـ اني اعيش مع امي .

ـ سأكـون عندك في الساعة السادسة .

واعطاه العنوان ، وارقام الحافلات التي تذهب الى تلك المنطقة.

وتركزت الان اصوات العصافير وشقشقتها بيـن اوراق الشجـرة المتراكمـة . ونظـرا لالتفاته الـى تلـك الاصوات ، لم ينصت الى صوت امه الذي كـان يدعوه من المطبـخ لكي يتناول طعامه الـى ان اضطره تكرار الدعوة الى اجابتهـا .

قالت الام وقد وصلت الى الردهـة ووقفت الى جواره :

ـ « الطعـام جاهز على المائدة » .

وخطر بباله ان لا حاجة الى قول كل هذه الكلمات ، وكان ممكنـا الاكتفاء بان تقول تعال لتاكل ، او لقـد جهز الطعام ، او لقـد جهز، او جـهز .

كانت المائدة قد اعدت للابن . واخذ هذا ياكل في بطء .وجلست الام هي الاخرى الى المائدة ، ولكنها لم تكـن تاكل . كانت تتحدث .

ـ « لقد عادت جميع ملابسك من المكواة . ينقصها فقط السروال البنـي ... يجب ان اذهب لاسأل عنه » .

وتفكر الابن : انه الان امام الباب ، وحتى الان لم اذكـر لهـا اي شيء . سيصل الان ، ستذهب هـي لفتح الباب ، لانـي آكل . انـه يصل في هذه اللحظة ، ويدق الجرس في هذه اللحظة ..

ووقفت الام وتوجهت الى الحوض لغسل الاطباق التي انتهى الابن من الاكل فيها . وجال في فكر الابن انها كانت تستطيع ان تنتظر حتى ينتهي من طعامه ثم تغسل الاطباق ، ولكنه لم يقل لها شيئا . وشاهدها تمشي ،وهي تقفز قفزات صغيرة،كمايفعل الفأر وقد بللـه الماء .

ولكنه انتهى من طعامه ولم يظهر الزائر المنتظر ، وترتب على ذلك ان الوقت المتاح له لكي يخبر امه بأمره كان يتناقص باستمرار .وتوجه الى الردهة واشعل الراديو ، ولكنه لم يعلن عن الوقت وظل يذيع الموسيقى . موسيقى بلا غناء ، وكان ذلك من اشد الاشياء التي تضايق الام لانه « لا يقول شيئا » ، مع انه كان يحبه لنفس ذلك السبب . واطفأ الراديو واقترب من الباب دون ان يسترق النظر الى الشارع . وكانت الام في هذه اللحظة جالسة في الردهة تتمايل في مقعدها جيئة وذهابا ، وبدت كما لو كانت تغني . وذهب الابن الى المقعد الذي كان في مواجهة الام ، واسند يده الى ذراع المقعد ، وجلس .

كان الابن والام في مواجهة احدهما الاخر ، يجلسان على مقعدين متماثلين ، الى جوار النافذة ذات الستائر والزجاج ، حيث يبين من ورائها الابسطة التي فرشتها اوراق شجرة اللوز المكومة التي لا تكف العصافير من الزقزقة عليها . وكانت الشمس الغاربة في تلك اللحظات تتسلل عبر الستائر وتسقط على الام والابن على شكل اهداب صفراء لا تحرق ولا تؤذي . ووصل الى اسماعهما من المطبخ صوت الخرطوم المركب على صنبور الحوض والذي ينفث الماء . وانبعث في نفس الابن ـ وكان يشعر ان الزائر قد اقترب في هذه اللحظة ـ انتعاش لا عهد له به من قبل ، وحاول ان يتحدث مع الام في ذلك الموضوع . ولكنها رفعت عنقها في تلك اللحظة دون ان تنهض من على المقعد .

كانت الام تنظر عبر النافذة .. وشاهد عنق الام في تطاوله ، وشاهده يتشمس الستائر ، ويستمر في طريقه . وشاهده يصطدم بالسقف ويحطمه . واستمر العنق في النمو .. وعندئذ انفتحت احدى جوانب النافذة بعنف بقوة الريح واصطدمت بانف الام . وضحكت الام بصوت عال .

وعملت ضحكة الام على اغلاق جانب النافذة ، ضحكة الام التي دوت في الردهة الضخمة وغطت على صوت خرطوم حوض المطبخ، وربما تغطي على صوت اي طرقة على الباب في هذه اللحظة ، ضحكة الام التي افزعت كل العصافير التي حطت على اوراق الشجرة فاختفت هاربة وهي تصيح وتزقزق .

وتوقفت الام عن الضحك .

قال : « ماذا حدث ؟ »

ونظر عبر النافذة . ثم خفض بصره نحو اصابع الام وقد وضعتها فوق ركبتيها . وكانت يدا الام مليئتين ببقع صغيرة من النمش ، رغم انها لم تكن عجوزا .

ـ « لا شيء » .

ونظرت الى اشعة الشمس وقد اخذت تتضاءل .

وكان الوقت يمر . وفي الشارع ، لم تعد تمر اية عربة . ولم تعد تسمع اي ضوضاء . وجال بخاطر الابن ان اللحظة قد حانت (اللحظة مرة اخرى) وتأهب للكلام . ولكن انتابت الام الانحركات مسرحية ، فقد وقفت فوق المقعد الذي اخذ يهتز تحتها ، بينما تغير لون رأسها وهو يتمايل . حتى لم تعد الردهة كلها في عينيه سوى اعصار مضيء بدا له شيئا محزنا كئيبا .

وجلست الام مرة ثانية ، وتأوهت .

وحالا بدأ الليل يسدل استاره ، كما يحدث عادة في تلك المناطق التي لا يكاد يبين فيها تغير الفصول . وكسر حدة الصمت عديد من الاصوات الجديدة ، كالبحر الذي يشرع فجأة في التموج ،وحيث تتحول الكلمات حين ينطق بها الى رموز بالغة الغرابة ، لان الظلمة تسدل استارها . ولكن لم تكن الدنيا ليلا بعد .

وخفتت الضوضاء ، كما لو كانت محاولة البحر قد فشلت . وتخلف على النافذة نوع من الهالة المائلة الى اللون الذهبي ثم اخذت تختفي شيئا فشيئا وهي تتقاطع مع طيف الام والابن وتجمع بينهما في تشابه واحد .

ورفع الابن رأسه ونظر الى الستائر مرة اخرى بحركة تدل على قلق داهم .

ونهضت الام .

قال : « ماما » . وتوجه اليها ليسندها ، ولكنه شعر بالعرق يبلل اصابعه لدرجة تكونت معها بحيرة من الماء بالقرب من مقعده ، فلم يمد يده الى الام حتى لا يبللها . وجال بخاطره اذ رأى يديه كأنما هما نبع من الماء ، ان قدرا هائلا او ربما رائعا يميزه عن باقي المخلوقات وحتى عن باقي الاشياء .

وكانت الام تسير في أحد جوانب الردهة . وكان يبدو في بعض الاحيان كما لو كانت تسير على الهواء ، او على قدم واحدة . وقد رآها اخيرا تختفي في المطبخ حيث اخذت تحادث نفسها .

وكان همس الام يصل الى الردهة ، كما لو كان حفلا موسيقيا ينبجس من احدى الاسواق المزدحمة بالناس . وشعر الابن بالخوف عند سماع صوتها ، خوف أشد مما أحس به في اي وقت حتى الآن . وتدفق العرق مرة اخرى من يديه وسقطت قطراته الى نفس المكان حيث تكونت البحيرة . وكان همس الام يرتفع حتى تحول الى همس جهنمي .

وحينئذ سمعت أول دقة على الباب ، كأنما هي آتية من حيث لا زمن .

انتهى الانتظار . ها هو . ووقف الابن . وتحولت موجات حديث الام من المطبخ الى انبجاسات آسيفة لا تحتمل .

حينئذ سمعت ثاني دقة ، بقوة غطت على الصحة الجهنمية التي تصدرها تلك البهيمة في المطبخ .

ـ من قال البهيمة ؟

اجل ، البهيمة التي تزيد الآن وتتطاول بينما انت واقف متردد. البهيمة المغيرة الملوثة بالشحم (من جراء سناج أوعية المطبخ ودهنها) التي كانت تلهث وتنمو بين أصوات المواء .... غير أن الابن سار نحو الباب ، فأخذت البهيمة الكبيرة تتضاءل في الحجم ، وقفزت تضارب السقف مرة اخرى عند قدمي الابن ، متوسلة بينما يتطاير الشرر من عينيها .

ولكن هذا ازداد اقترابا من الباب ، وامسك بالمقبض .

ـ اي مقبض ؟

لم يكن بذلك الباب اي نوع من المقابض أبدا ،

ها انت قد امسكت بالمقبض ولسوف تفتح .

ولكن الهاتف الاخر وصل في هذه اللحظة ، ونظر الابن الى الام ، ضئيلة ، غارقة في بحيرة العرق الذي تساقط من يديه . وتردد . وانتابه الخوف أن يحطم الاتفاق .

ـ أي اتفاق ؟ من يتحدث عن اتفاقات ؟

الاتفاق الذي عقدته مع أمك . الاتفاق الذي حافظت عليه طول حياتك ، وينتابك الآن الشك فيه .... « ابني ليس له اصدقاء » « ابني لا يستقبل احدا في المنزل » . « ابني ..» . الاتفاق الذي تخرقه دائما ، حتى لو كان ذلك عن طريق التفكير ليس الا .

وبرزت الام مرة اخرى ، هائلة ، حين ترك الابن مقبض الباب . واستمرت تنمو حتى استردت حجمها البهيمي . وبجناح من جناحيها الهائلين ضمت الابن الى صدرها المليء بالحشرات .

ـ الحشرات !

وعندئذ رنت الدقة الرابعة ، وخرج الابن وجلا يجري ولجأ الى الحجرة الشبيهة بقفص الطيور في الدور الاعلى . وفتح ستائر الحجرة قليلا ونظر الى الباب الخارجي وجلا .

وهناك كان الصديق ، حقيقيا ، يدق الباب دون تعب . يدق وينتظر . يدق بخبطات اكيدة . هناك كان الصديق ، ينتظر . والام في الداخل ، تلهث كالحصان ، وتملأ المنزل جميعه بجناحيها الهائلين .... ولم ينقطع الزائر عن الدق . ولقد رأيته من أعلى يصر على موقفه حتى جال بخاطرك أن تدعوه اليك .

ـ حقا !

آه ، ادعه . تكفي اشارة بسيطة . هل ..؟ هس ، كما تفعل الصراصير . ادعه . آه ، ادعه ، ادعه بحق الاله ...

وعاود الزائر اصراره ، فدق الباب من جديد .

وانتظر .

وبعد ذلك ، سار في الاتجاه المخالف ، اغلق شباك المدخل الحديدي وخرج الى الشارع .

وشاهده الابن يبتعد . وبعدها هبط مرة اخرى الى الردهة . وساد البيت صمت عميق . وسار دون هدى عبر الردهة الخالية ، وطاف دون هدى خلال جميع الحجرات الخالية ، ووصل الى المطبخ الخالي ، وأفرغ في جوفه لترا من اللبن دون هدى . وقال كما كان يقول في الازمنة الخالية ، حينما كان شابا وكان ابنا : « ماما » . قال: ماما ، لانه لم يكن قد تعلم أن يقول شيئا آخر . وتذكر كل ما حدث خلال النهار ، والانتظار ، ووصول الزائر . وتمشى وحده عبر ذلك البيت الهائل . وانتابه في لمحة واحدة رؤيا لوحدته السابقة ورؤيا واضحة مضيئة لوحدته الاتية . لدرجة ان شعر بحاجته الى تفسيرات ومشورات . ولكن احدا لم يجبه كما هي العادة ... مضى زمن طويل كانت أمه فيه مصدر تصرفاته دون أن تكون معه ، تشعره بالضآلة ، تضطهده ، تقضي عليه .

قال : ماما . وشاهدها تسير في جانب من جوانب السماء على عارضتين خشبيتين ، دائما كما لو كانت في مأزق ، دائما وهي تحاول ان تكسب الوقت لتضيعه بعد ذلك في الاعمال التافهة .... ولكنها لم ترد عليه هي الاخرى هذه المرة ، فمنذ وقت طويل كانت الام قد ماتت

وفي الظلمة ، سار الشيخ نحو احد جدران الردهة . قال وهو يضع الوصلة الكهربائية كأنما هو خالق تلقائي جديد : « اضيئوا الانوار ! » .

القاهرة